مرآة صغيرة مدورة

لا يعرف إلى أين تمضي قدماه، سارت به الخطا في الزقاق الضيق، عصاه تدق على البلاط المفلطح، إيقاعها الهادئ يؤنسه، البيوت القديمة المتلاصقة أوراق قديمة مطوية، أبوابها المغلقة تثير شجنه.

هنا جاري أبو صالح، وهناك أبو سعيد، وهنالك أبو عماد، رحم الله الجميع، رحلوا وهجر الحي من بعدهم الأولاد، لو رأوني ما عرفوني، ليتني ما خرجت، هل أرجع إلى البيت؟.

خرج إلى شارع عريض، يغص بالسيارات، الرصيف ممتلئ بالباعة والمشاة، المحلات تعرض بضائع شتى، توقف هنيهة أمام محل، التقط أنفاسه، ليس ثمة ما يمكن أن يشتريه، ليس ثمة ما يناسب ذوقه.

بحث عن بائع تبغ، بائع صحافة، ليس ثمة غير باعة الألبسة والأحذية والهدايا والتذكارات، وباعة الأطعمة. لا يريد طعاماً، لا يريد ثياباً، هو بشوق إلى ركن هادئ في مقهى، يتصفح فيه جريدة، ويدخن سيكارة، ويحتسي فنجان قهوة.

صبايا حسناوات، وشباب، باعة متجولون يحملون أمشاطاً وعطوراً وسبحات وعقوداً ومرايا، أحس أنه هو وحده العجوز، تقدم منه ولد في الحادية عشرة، ألح عليه أن يشتري منه مشطاً أو عقداً أو مرآة أو زجاجة عطر،سار إلى جواره، يعرض عليه صندوقه الصغير المربوط إلى عنقه، وهو يعدد له أصناف بضاعته.

ماذا يشتري؟ استل من جيبه خمس ليرات، رماها في صندوق الولد، وهو يقول له:

ـ هات، أعطني أي شيء بهذه الليرات الخمس.

ويناوله الولد مرآة صغيرة مدورة، يقلبها العجوز بين يده، وهو يسأل نفسه ماذا يمكن أن يفعل بها؟ ثم يودعها في جيب سترته ويمضي يدق على الرصيف بعصاه.

في نهاية الشارع رأى مقهى، رمى نفسه في أول كرسي، اتكأ على طرف الطاولة، طلب من النادل فنجان قهوة وعلبة تبغ وجريدة، أخذ يتلفت حوله، لعله يجد في المقهى من يعرفه، هل رحل كل من هم في عمره؟ ألم يبق غيره؟

لم يكمل الفنجان، ترك الجريدة على الطاولة، ونهض، رجع في الطريق نفسه، يجر الثمانين وراءه، لم يبق له غير العصا يتوكأ عليها.

احتواه الزقاق الضيق، وقد أخذ المطر ينهل رذاذاً، بلاط الزقاق يلتمع، وقع خطواته على البلاط يؤنسه، أحس بشيء من الرضا وهو يقترب من حافة البيت.

لن أخرج بعد اليوم، أصبح الخروج صعباً متعباً لا جدوى منه، حتى العصا ما عادت تنفع، ولا طعم للقهوة، ولا للجريدة، وماذا سأقرأ؟.

دخل البيت، أسرعت إليه حفيدته رجاء، جديلتاها تتقافزان، ركضت نحوه:

ـ جدي، جدي، ماذا أحضرت لي؟

خاف أن تصدم عكازه، فيقع، مسح بيده رأسها، داعب الجديلتين، حار في أمره، تردد، نسي أن يشتري لها شيئاً.

مدَّ يده إلى جيب سترته، عثرت يده بالمرآة الصغيرة المدوَّرة.

صورة وصور

أشتري الجريدة فأرى صورته وهو يضحك، كل يوم أشتري الجريدة فأرى فيها صورته وهو يضحك، تعجبني أفكاره، أقرأ مقالته، كل يوم أقرؤها، هو ناقم، متمرد، مفكر حر، بريء، جريء، أحبه وأتفق معه، وأتمنى لو أقابله، أو أراه، ولكن لا أعرف لماذا يضحك، بالطبع لا أتمنى أن أراه في الصورة وهو غاضب أو عابس، ولكن لا أحب فيه هذه الضحكة الواسعة العريضة.

لست يائساً ولا متشائماً ولا غاضباً ولا عابساً، أنا أيضاً أضحك، ولكن هو بالذات لا أعرف لماذا بدأت صورته تستفزني، بدأت أكرهه، مازلت أقرأ مقالاته كل صباح، مازلت معجباً بأفكاره، طبعاً لا أريد أن أراه مثل هتلر، بشاربين مستقيمين مثل عمودين، ووجه عابس، وغرَّة تسقط على جبينه، ويد تهتز بحدة وهو يخطب أو يتكلم، ولا حتى مثل شارلي شابلن، لا أعرف كيف أتمنى أن أراه، بدأت أكرهه، مللت من ضحكته.

أنا شخصياً أضحك، أحب الضحك، ذهبت مرَّة إلى المصوِّر، أوقفني أمام المصورة وقال لي: ابتسم، ضحكت،

ضحكت كثيراً، قهقهت، قال لي: لا، ليس هكذا، ابتسم فقط، ضحكت أكثر، لم أستطع منع نفسي من الضحك، عضلات فمي بدأت تؤلمني من شدة الضحك.

أذكر أنني كنت في غرفة الانتظار أتلوى، والألم يحفر في خاصرتي مثل مثقب، سكاكين حادة تحز، إبر محمَّاة بالنار تخز، أدخل عليه، فيضحك، يقول: الأمر بسيط، عملية فورية، غرفة العمليات جاهزة، بعد ربع ساعة ترجع إلى بيتك لتشرب الحساء، هو التهاب حاد في الزائدة، كل يوم نجري مثلها مئات العمليات، كل يوم أمر أمام المشفى الذي أجريت فيه العملية، أتخيله وراء مكتبه وهو يضحك، أراه يمسك المشرط بيده وهو يضحك.

مرة رأيته وراء المقود وهو يضحك، ولكن لفت نظري شيء، سيارته لها وجه ضاحك، بدأت أهتم بوجوه السيارات، وجوه عابسة، وجوه غاضبة، وجوه مخيفة، لفت نظري وجوه سيارات الرؤساء والوزراء والمديرين وأنا أراها في التلفاز، وجوه سياراتهم ضاحكة، كدت أروح ضحية وجه ضاحك، وأنا أعبر الشارع، تعلقت أنظاري بوجه ضاحك، رحت أتأمله، وكدت أذهب تحت العجلات، لم يكن وجه سيدة إنما كان وجه سيارة.

لا أعرف كيف يضحكون، الرؤساء والوزراء والسفراء كلهم نراهم وهم يضحكون، لا تلتقط لهم الصور التذكارية

إلا وهم يضحكون، دائماً نراهم وهم يضحكون، يناقشون أمور السلم والحرب والسلاح ويتحدثون عن الزلازل والانهيارات وغرق حاملات النفط وسقوط الطائرات وتصادم القطارات وانتشار الإيدز وغلبة الأمية وعمل الأطفال وهم يضحكون.

أشتري اليوم كعادتي جريدة الصباح، ما أزال على الرصيف، أفتح الصفحة الأخيرة، الجو عاصف، والهواء شديد، والبرد قارس، ضحكة واسعة جداً عريضة جداً مثل نهر يسير بالعرض، هو وجه آخر لكاتب آخر، وجه أشد ابتساماً، عفواً، أشد ضحكاً.

أمضي إلى المديرية، أتأمل وجه الموظفين والعمال والمستخدمين والمراجعين، أتفرَّس في وجوه الجميع، أرجع إلى البيت، أنظر إلى زوجتي، أرى أولادي، أتفرس في وجوههم، أرجع إلى جريدة الصباح، وقد حملتها معي إلى البيت، أتذكر وجوه السيارات، أرى الأخبار في التلفاز، لماذا تضحك وجوه؟ ووجوه لا تضحك؟

أذهب إلى غرفة النوم، أنظر في المرآة، أرى فيها وجهاً يضحك، أدهش، بدأت أضحك، أتلمس فمي، أحس بألم شديد في عضلات وجهي من فرط الضحك، ما أزال أضحك.

فور دخولي المديرية في صباح اليوم التالي، يقول لي المستخدم:

- المدير يطلبك.

- ما المشكلة، لم أتأخر؟!.

- أمس كنت تضحك، كل الموظفين في المديرية يعرفون، كنت تضحك أمام المرآة في غرفة النوم.